

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بكه فقهوى

الاسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الزهاء للاعلام العربى
قسم النشر

ص ب ١٠٧ مدينة نصر - القاهرة - طرايا زهرايف - تليفون ١٩٨٨٨٦٠١ - ٢٦١١١٠٦ - تليكس ٩٤٠٢١ هاتف بران
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U . N

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨

حقوق الطبع محفوظة

ولا يجوز طبع أى جزء من هذا الكتاب
أو تخزينه بواسطة أى نظام تخزين المعلومات
أو استرجاعها أو نقله على أية هيئة
أو بأية وسيلة سواء أكانت إلكترونية
أم شرائط ممغنطة أم غير ذلك
إلا بإذن كتابى صريح من الناشر

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

تصميم الغلاف والإخراج الفنى
عصمت داوشتاشى



أحمد برجيت

الزعماء
للإعلام
العربية

مُقَدِّمَةٌ

آثرت أن أكتب لكم قصة إنسان في طريقه إلى الله ، وقد بدأت القصة من الأيام الغامضة التي سبقت خلق البشرية ... ثم تعرضت لموقف أخذ العهد ، وموقف سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس . ثم تتبعته الأيام الأولى في الجنة ..

ثم انطفأ كل شيء وآدم يهبط إلى الأرض ، انزوى بطل قصتنا في خلایا آدم ، وظل ميتا حتى ولد ذات صباح شتائی بارد .

تبعته بطل القصة وهو جنين في رحم أمه ، ثم حين ولد ، ثم حين بدأ يستقبل الوعي ويكبر ..

إخترت مواقف من حياة هذا الرجل ، وهى
المواقف التى كانت ترفع عنه غطاء الخيمة الترايبية
وتحاول إعادته إلى أصله الروحى القديم المجيد .

وأعترف : إننى استعنت بالذكريات الشخصية
وبالخيال ، كما استعنت بثلاثة كتب رئيسية كنت أنقل
منها فقرات كاملة فى القصة ... إن جاز أن نسميها
قصة .

هذه الكتب الثلاثة هى : المشوى المعنوى لجلال
الدين الرومى ، وحكم ابن عطاء الله السكندرى التى
شرحها ابن عجيبة ، والمواقف والمخاطبات
لمحمد بن عبد الجبار النفرى ..

والكتب الثلاثة من الكتب البديعة فى دنيا العارفين
بالله . أما كتاب جلال الدين الرومى فيضم ٢٥ ألف
بيت من الشعر فى ستة مجلدات ، وقد ترجم جزءين

منه إلى العربية الأستاذ الدكتور المرحوم محمد عبد السلام كفافى ، وقد علمت أنه ترجم الجزء الثالث ثم لم يمهله الأجل لطبعه ، فبقى الكتاب فى أصوله دون طبع . ولت دارا للنشر تطبع هذا الجزء ، ولت دارا للنشر تبحث عن أستاذ يعرف الفارسية ويحب الأدب الصوفى لترجمة الأجزاء الثلاثة الباقية ؛ فهذا الكتاب من كنوز الأدب العالمى الصوفى . أما الكتاب الثالث فهو كتاب المواقف والمخاطبات للنفرى ، وهو كتاب يتصور فيه مؤلفه أنه وقف بقلبه فى الحضرة الإلهية فاستمع لما استمع إليه ، وكتب ما كتبه ..

ولست أعرف الآن مدى توفيقى فيما كتبه على أى حال ... إذا رضى القراء عما يقرءونه فهذا تأثير المؤلفين الثلاثة الكبار ، وإذا لم يرض القراء فهذا تقصيرى ..

نسأل الله أن يتقبل منا ، وأن يدخلنا جميعا فى رحمته ..

(١)



لم أولد بعد .
مازلت جزءا من العدم .
لا أسمع شراً ... لأرى شراً ... لا أقول شراً ... وأيضا
لأفعل شراً . برىء كالمياه ... كالنجوم ، والشمس
ورهور الحقول المعطرة ..
لم أرتكب ذنبا واحدا بعد ..
لم أولد بعد ..
لا أعرف متى أولد ، ولست أدري ماذا يكون
إحساسى عندما تقع هذه المعجزة ... معجزة تحول
العدم إلى وجود ، ثم تحول هذا الوجود إلى حياة .

.....

قبل بدء البدء كان الله .
لا شيء مع الله ولا شيء سواه ... استغنى
بذاته عن عداه ، واقتصر إليه كل شيء
سواه ... وما كان هناك سواه ، ولا كان
هناك ما عداه .

.....

يفتح القرآن الستار قبل الوجود الكوني على مشهد
جليل أكبر من قدرة العقول على التصور ، ولكنه ليس
أكبر من قدرة الأفتدة على الوعى . قوله تعالى :
﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [هود ٧] تشير الآية
إلى زمن كان قبل خلق الزمان ..

وكان قبل خلق الأكوان ..

لا نعرف متى كان هذا ، ولا أين كان ، ولا كيف
كان ... كل ما نعرفه هو ما تصوره الآية ، وهو مشهد
مياه عظيمة تحمل عرش الله .

﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ .

إن « كان » هنا تعود إلى زمن كان قبل ميلاد الزمان
والإنسان ... في هذا اللازم المجهول الغامض الذي
أسدل الله عليه ستائر السر ... كان الحق ولا شيء
معه ..

وكان البشر جميعا قبضة في ضمير المياه التي تعلو
وتهبط مع حركة السجود الخاشع تحت عرش الله ..

.....

« كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف ، فخلقت
الخلق فبي عرفوني » .

هذا حديث قدسي سنعرفه بعد آلاف السنين من
الخلق ، ولكنه حديث يفتح الستار على مشيئة الله تعالى
في العطاء ... روى عن الرسول أن الحق تعالى قال :
« كان الإحسان هو قصدى من الخلق » .

شاء الله تعالى أن يمنح مجد معرفته لغيره ، وأن
يتكرم بألوهيته على من لم يخلقهم بعد من عباده ...
شاء فكان ما شاء .



(٢)

انصرفت مشيئة الله تعالى إلى الخلق .
فاض عطاؤه وفاضت رحمته على العدم . كان
الكون عدما وكنت جزءا من العدم ، وكان الكون كله
ظلمة وكنت جزءا من الظلمة ، ثم أنارنا ظهور أمر
الحق .

أصدر الله تعالى أمره إلى العدم قال ﴿ كن ﴾ ،
وهي كلمة من حرفين ، سمع العدم أمر الله تعالى رغم
أنه بلا أذن ولا سمع . إستحي العدم حين كلمه الله
تعالى وصار وجودا يمج بالحركة .

يقول جلال الدين الرومي : لقد همس الحق في أذن
الوردة من قبل أن تخلق الوردة فجعلها تبتسم بالعطر ،

وتحدث إلى الحجر فكان منه عقيق المنجم ، وتلا آية
على الجسم فأصبح روحا ، وكلم الشمس فأضاءت
بالإشراق ، ثم عاد وألقى فى سمعها بكلمة رهيبة فوقع
على وجه الشمس مائة كسوف .

أى قول ألقاه الحق فى سمع السحاب فصب من
أعينه الدموع ؟ وما الذى تلاه الحق على سمع الأرض
فصارت مراقبة ولزمت الصمت ؟

لا أحد يدري .

كل ما ندرية أن الموقف كان موقف عطاء
إلهى شامل من العدم إلى الدخان إلى
الماء ، إلى بلايين النجوم إلى قطعة
الصلصال ، إلى الخلية الحية ، إلى إنسان
يتلو مزامير داود فتوراة موسى فإِنْجِيل
عيسى فقرآن محمد .

وهكذا انتقلت من أحضان المياه الخاشعة
إلى ظهر أبينا آدم قبل أن يخلق الله أبانا
آدم ..

.....

انتقلت طائعا راضيا يدفعني الحب .
وكذلك انتقلت السماوات والأرض طائعة راضية
يسوقها الحب . فى البدء كان خلق السماء والأرض .

يقول تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان
فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا
طائعين ﴾ [فصلت]

لا إكراه هناك .
لقد أمر الله الكون أن يكون حضورا من العدم ،
طائعا أو مكرها ، هنالك سجد الكون بين يدى الطاعة ،
وولد العشق يومذاك .
لا إكراه هناك ..
بنى الكون كله على الحب ، وخلق الإنسان من
الحب .





(٣)

حين منحت السماء والأرض حق الاختيار بين
الطاعة والإكراه ... قالتا أتينا طائعين ... هل تجيء
الأشياء طائعة إلا إذا كانت عاشقة ..

تخلل الحب نسيج الكون وهو يخلق ، وولد الحب
من مجرد توجه المشيئة الإلهية إلى المخلوق ..

أى أنه ولد بكلمة من الله ..

بعد خلق الكون خلقت ... ذرة فى ظهر أينما آدم
حين خلق آدم ... وفى هذا العهد القديم عاينت ثلاثة
مواقف :

موقف أخذ العهد على أبناء آدم بالتوحيد .

وموقف سجود الملائكة لآدم ولى ..

وموقف رفض إبليس أن يسجد لى أو لآدم ..
وكانت هذه المواقف لازمة للمعرفة الإنسانية ..
عرفت من الموقف الأول من خالقنا وربنا ..
وعرفت من الموقف الثانى من حييـنا وظهـيرنا ..
وعرفت من الموقف الثالث من عدونا على
الأرض ..

.....

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ
ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا : بلى شهدنا ﴾ .

كان الموقف أجل من الوصف وأكبر من
الإحاطة ... لم أكن قد ولدت بعد كجسد لأعبر عنه
بالعقل أو اللسان ، كنت روحا تنتظر رداءها البشرى
بعد ملايين السنين .

ورغم ذلك أرى - بعين الروح - كل تفاصيل
الموقف ..

لا أراه وإنما أحسه إحساسا أقوى من الرؤية ..

كان الموقف موقف قبض وهيبة ..
خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع همسا ...
سأل رب العالمين :

□ أأست بربكم ١٩

سجدنا شهودا على ربوبيته ، وتزلزلنا من هيبة
ألوهيته ، وشهدنا بلسان السجود والحال والمآل
عليها ..

□ بلى شهدنا ..

اعترفت الأرواح فى الحضرة الإلهية بالتوحيد ...
وأقرت بالإسلام وختم الله العهد بقوله محذرا : ﴿ إن
تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا
إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا
بما فعل المبطلون ﴾ .

وهكذا لزمنا الحجة وانعقد العهد على أبناء آدم .





(٤)

عرفت حقيقة جوهريّة يوم أخذ العهد علينا ،
وأدهشني أمر آخر تماما . عرفت لمن أتمى ... عرفت
عبد من أنا ... وبهذه المعرفة صرت سيّدا من سادة
الكون قبل أن أعرف الكون أو أخلق فيه ..

أدهشني أمر آخر ... لم أفهم معنى التحذير الإلهي
من الغفلة والشرك ... لم أفهم - يومئذ - معنى أن
يكون الإنسان مشركا أو غافلا عن ربه ومولاه .

سأعرف فيما بعد معنى الكلمات ..

سينزل أنبياء كثيرون لتذكير الناس بهذا العهد
القديم ، وسيكون هناك تلاميذ للحقيقة يحدثون الناس
عنها ..

يقول النفرى فى موقف معرفة المعارف :
أوقفنى فى معرفة المعارف وقال لى : هى الجهل
الحقيقى من كل شىء بى . وقال : صفة ذلك
فى قلبك وعقلك أن تشهد بسر كل ملك
وملكوت ، وكل سماء وأرض وبر وبحر ، وليل
ونهار ، ونبى وملك ، وعلم ومعرفة ، وكلمات
وأسماء ، وكل ما فى ذلك ، وكل ما بين ذلك
يقول : ليس كمثله شىء ..

وترى قوله ليس كمثله شىء هو أقصى علمه ومنتهى
معرفة .

وقال لى : إذا عرفت معرفة المعارف ، جعلت العلم
دابة من دوابك ، وجعلت الكون كله طريقا من
طرقائك .

وقال لى : إذا جعلت الكون طريقا من طرقائك لم
أزودك منه ... هل رأيت زادا من طريق ؟

وقال لى : الزاد من المقر ، فإذا عرفت معرفة
المعارف فمقرك عندي ، وزادك من مقرك ، ولو
استضفت إليك الكون لوسعهم ..

.....

يستطيع الإنسان أن يستضيف الكون لو وقف في موقف الإسلام .

يقول نفرى : أوقفنى فى الإسلام وقال لى : هو دينى فلا تبتغ سواه فإنى لأقبل ..

وقال لى : الإسلام هو أن تسلم لى ما أحكم لك وما أحكم عليك .

قلت : كيف أسلم لك .

قال : لا تعارضنى برأيك ، ولا تطلب على حقى عليك دليلا من قبل نفسك ، فإن نفسك لا تدلك على حقى أبداً ، ولا تلتزم حقى طوعا .





(٥)

حين قال لى لا تعارضنى برأيك .

قلت : كيف لا أعارض ؟

قال : تتبع ولا تتبدع .

قلت : كيف لا أطلب على حقلك دليلا من قبل

نفسى ؟

قال : إذا قلت لك إن هذا لك تقول هذا لى ، وإن

قلت لك إن هذا لى تقول إن هذا لك ، فيكون

أمرى لك هو مخاطبك وهو المستحق عليك

وهو دليلك .. فتستدل به عليه ، وتصل به إليه .

قلت : فكيف أتبع ؟

قال : تسمع قولى وتسلك طريقى .

قلت : كيف لا أبتدع ؟

قال : لا تسمع قولك ولا تسلك طريقك .

قلت : ما قولك ؟

قال : كلامي .

قلت : أين طريقك ؟

قال : أحكامي .

قلت : ما قولي ؟

قال : تحيرك .

قلت : ما طريقتي ؟

قال : تحكمك .

قلت : ما تحكمي ؟

قال : قياسك .

قلت : ما قياسي ؟

قال : عجزك في علمك .

قلت : كيف أعجز في علمي ؟

قال : إني ابتليتك في كل شيء مني إليك ، بشيء منك إلى ، فابتليتك في علمي بعلمك ، لأنظر

أَتَتَّبِعْ عِلْمَكَ أَوْ عِلْمِي ، وَابْتَلَيْتَكَ فِي حُكْمِي
بِحُكْمِكَ ، لِأَنْظُرَ أَتَحْكُمُ بِحُكْمِكَ أَوْ
بِحُكْمِي .

قلت : كَيْفَ أَتَّبِعُ عِلْمِي وَكَيْفَ أَعْمَلُ بِحُكْمِي ؟
قال : تَنْصَرِفُ عَنِ الْحُكْمِ بَعْلَمِي إِلَى الْحُكْمِ بَعْلَمِكَ .
قلت : كَيْفَ أَنْصَرِفُ عَنِ الْحُكْمِ بَعْلَمِكَ إِلَى الْحُكْمِ
بَعْلَمِي .

قال : تَحُلْ بِكَلَامِكَ مَا حَرَمْتَهُ بِكَلَامِي ، وَتَحْرِمْ
بِكَلَامِكَ مَا حَلَلْتَهُ بِكَلَامِي . وَتَدْعِي عَلَيَّ أَنْ
ذَلِكَ بِإِذْنِي وَعَنْ أَمْرِي .





(٦)

انتهى أخذ العهد فعانيت موقفا آخر ..
موقف سجود الملائكة لآدم .
وقد أثار خلق البشر واستخلافهم في الأرض حيرة
الملائكة .

في البدء حدث الله تعالى ملائكته ..
﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في
الأرض خليفة ﴾ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها
ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس
لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

.....

لم يكن قول الله للملائكة استشارة لهم ... سبحانه
الله وتعالى على استشارة أحد من خلقه . لم يكن قول
الملائكة لله اعتراضاً منهم ... إن الملائكة هم رمز
الطاعة في قممها العالية ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم
وفعلون ما يؤمرون .

.....

تفسير الآيات أن الله تعالى كان قد حدث ملائكته
أنه سيخلق خلقاً يفسدون في الأرض ويسفكون فيها
الدماء ، فلما أخبر الله تعالى ملائكته أن الإنسان هو هذا
الخليفة ، لم يفهم الملائكة حكمة استخلافه ، ومن ثم
قامت في نفوسهم الحيرة ..

إنهم يسبحون بحمد الله ويقدمون له ، والخليفة
المختار ليس منهم ، فما السر في ذلك ؟ ، وما حكمة
الله تبارك وتعالى في الأمر ؟ ..

إن الملائكة يتصورون بفطرتهم البريئة ، وكونهم
رموزاً للخير المطلق ، أن الغاية المطلقة لوجود
الكائنات هي التسييح بحمد الله وتقديسه ، ومادام هذا

المخلوق الجديد سيخرج على هذا الإطار فما حكمة
استخلافه ..

هى حيرة تنبع من قلب الطهر الكلى المطلق ..
وقد هدى الله الرحيم ملائكته الكرام فى حيرتهم ...
قال لهم ﴿إلى أعلم ما لا تعلمون﴾ .

بهذه الإشارة إلى علمه المحيط وعلمهم القاصر ،
أدرك الملائكة أن هذا المخلوق الجديد - رغم عصيانه
وسفكه للدماء - سوف يحقق حكمة عليا لا يدريها
غير الله ..

حكمة أخفاها الله عنهم الآن ، ولكنه سيكشفها لهم
بعد خلق الإنسان ..

وجاءت بداية هذا الكشف حين أمر الله تعالى
الملائكة أن يسجدوا لآدم فسجدوا .





(٧)

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ
بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِن رُّوحِي
فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ *
إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

.....

كان الملائكة لا يعرفون حكمة استخلاف آدم ..
رغم ذلك ، لم يكذب أمر السجود يصدر إليهم حتى
سجدوا ، وهذه حقيقة الإيمان ... أن يطيع الكائن حتى
لو كان لا يفهم الحكمة .

أرضاني كرم الملائكة ..
كانوا يسجدون لى سجود تحية ..
معروف ومفهوم أن سجود العبادة لا يكون إلا لله
وحده .
وكان سجودهم لى من أحد جوانبه سجودا لإعجاز
الله فى خلقى ، ومن جانب آخر كان تحية كريمة
لى ..

.....

فوجئت كما فوجيء آدم بأن هناك مخلوقا يقف
وسط الملائكة ولا يسجد معهم .
ملأتنى الدهشة ، أياكون أحد الملائكة لم
يسجد ..
دقت نظر الروح فرأيت الذى استكبر عن
السجود مخلوقا من الجن لا من الملائكة ...
كان يقف مع الملائكة حين صلب إليهم أمر
السجود ، لزمه الأمر مثلما لزم من هو أعلى
منه ..
رغم ذلك ... لم يسجد .

لم أكن أعرف حتى هذه اللحظة ما اسم هذا الكائن
حتى خاطبه الله تعالى : ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن
تسجد لما خلقت بيدي ، أستكبرت أم كنت من
العالين ﴾ .

عرفت أن اسمه إبليس ... وأدهشني عصيانه ... ثم
سمعت أسباب رفضه السجود ، فكانت أعجب من
رفضه السجود ذاته .

﴿ قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من
طين ﴾ لم أفهم كيف تكون النار خيرا من الطين
وخالقهما واحد هو الله . خاطب الله تعالى إبليس قال :
﴿ فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتي إلى
يوم الدين ﴾ .

ارتعشت روحى من الخوف أمام هذه اللعنة
الإلهية ..

تضعضت رغم أنها انصبت على غيرى ..





(٨)

وقف إبليس أمام لعنة الله ضئيلا منبوذا .
تضعض أمامها تماما ... شرب يأسه القاتل
وأسكرته كراهية آدم .

كان إبليس قد وصل إلى مرتبة الوقوف مع الملائكة
رغم أنه من الجن ، ما الذى أوصله لهذا المقام الرفيع ؟
لا أدري ... كل ما أدريه أننى شاهدت انكساره وهو
يطرد من رحمة الله ، وشاهدت عاره وهو يطرد من جنة
الله .

ارتعشت روحى وتجمدت فى ظهر آدم من
الرعب .

وعاد صوت إبليس يرتفع مجللا بالإثم ، وهو يقول :

﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك
من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال
فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم
المخلصين ﴾ .

.....

وقع لإبليس تغير هائل .
سقط جماله ، وسقطت كبرياؤه وضاع
مقامه ، وتطاير ريش مجده ووقف عاريا
كالآثم .

نظر إبليس إلى أبي آدم نظرة طويلة صامتة ...
ثم استدار وخرج من الجنة .
وأدركت أن إبليس عدو للإنسان ..
عدو لا تنقشع عداوته إلى الأبد ..

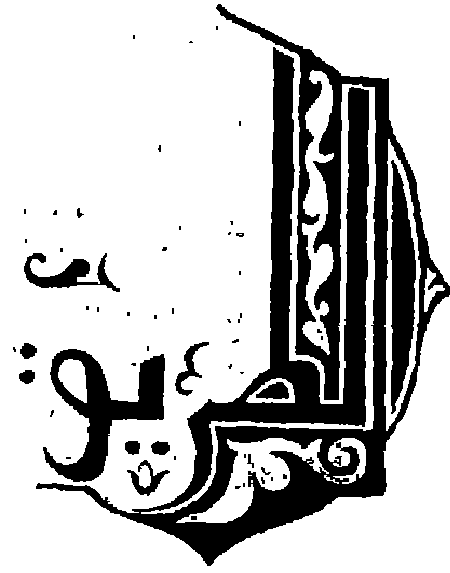
.....

بعد هذا الموقف الذي تجمدت فيه دهشة آدم
أمام لعنة الله لإبليس ، عاينت موقف رحمة إلهي
شامل .

كشف الله تعالى لملائكته سر استخلاف آدم
فى الأرض ، وهداهم فى حيرتهم الى بيان
الحكمة ..

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على
الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم
صادقين ﴾ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا
إنك أنت العليم الحكيم ﴾ فلما أنبأهم بأسمائهم
قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات
والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .
فهم الملائكة أن آدم يعرف أسماء الأشياء ،
ويملك القدرة على الرمز للأشياء بأسماء .
ويملك موهبة العلم والاكتشاف والاختراع
والإبداع ، وذلك سر اختياره لعمارة الأرض ..
قدرته على التعلم والمعرفة والإبداع .





(٩)

دخل آدم وحواء الجنة قبل أن يهبطا إلى
الأرض . خلق الله حواء من آدم ليسكن إليها ،
ودخلت معهما الجنة وأنا لم أزل حلما في ذهن
حواء وذرة في ظهر أبي ، أى أننى دخلت الجنة
حالما أو فى صورة الحلم ... والجنة مكان
رائع ..

أعتقد أن الجنة زمان وليست مكانا ..
هى زمان القرب من الله تعالى ..
هذا جوهر الجنة ..

.....

أعطني جنة من أنهار الخمر واللبن والعسل ،
أعطني كل الحور العين في الجنان ، أعطني نعيم
الطعام والشراب وقل لي إن الله غاضب عليك ...
ستتحول الجنة إلى جحيم ، وسيصير اللبن سما ،
والعسل علقما والخمر نارا في الجوف ...
وسيتحول حب الحور العين إلى خيانات ؛
ولذلك اعترف أن الجنة ليست مكانا وإنما هي
زمان القرب من الله ، هذه حقيقة الجنة ... الجنة
هي زمن الدهشة والبراءة ..

وهي زمن الحب الجميل الذي لا يحمل هم
تغييرات المحبوب أو تحولاته ... لا شمس فيها
ولا زمهرير ، لا حر ولا برد .
ثمة ربيع دائم من الرضا الإلهي .

كان آدم قريبا من الله تعالى ، وكنت بالتالي قريبا
من الله عز وجل .. رحت أمتليء بوهج من الهناء في
هذا الزمان البعيد ، ورغم أنني كنت ذرة في ظهر أبي ،
رغم موتي آنذاك ، رغم عدم وجودي بشكل مادي
لملموس ، رغم هذا كله راح يتخلق داخلي في وهج

الجنة حلم فى الخلود فيها ، ولسوف يحمل كل إنسان
هذا الحلم كما حمّله آدم ..

.....

من هذا الحلم ، من ثغرة الحلم نفذ إبليس إلى أبينا
الأول آدم ، أغواه يوما بقوله : ﴿ هل أدلكما على
شجرة الخلد وملك لا يلى ﴾ وتقلبّت الفكرة فى رأس
آدم ، نسى تحذير الخالق بشأن الشجرة ، وراح يقترب
بفكره منها ، لا أنكر أننى أحسست بالفرح ... كنت
أعرف أن آدم فى طريقه إلى المعصية ، ولكن هذه
المعصية ستكون سببا فى ميلادى ..

إن كل عجائب الحياة الإنسانية مدينة بالوجود
للحظة نسيان بشرى كان الخالق يعلم أنها واقعة .
اقترب آدم من الشجرة المحرمة .





(١٠)

أكل آدم من شجرة المعرفة أو شجرة المعصية أو
شجرة النسيان ... لم يكذب يفعل حتى فقد براءته ..
اكتشف أنه رجل ... اكتشف أنه عار ... تطاير
رداؤه الجميل في الجنة ، اكتشف أن حواء امرأة ...
واكتشف أنها عارية ..
أحس بالخجل من عريه ... وعريها ..

بدأ يقطع أوراق الشجر ليغطي نفسه ... اكتشف أنه
فقد براءته كما فقدت الأشياء بكارتها ... لم يعد في
قلبه هذا اللحن الجميل من الحنان الطفولي ... على أن
أخطر اكتشافاته كانت إحساسه المفاجيء بالبعد عن
الله ..

أحس أنه يهوى ... وينزل ويهبط ... ويتعبد عن
الله . أدرك أنه يقف في زمان المعصية لا زمان البراءة .
وعلى أرض الخطيئة لا أرض الجنة ..

﴿ فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدم هل أدلك
على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت
لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق
الجنة ﴾ .

.....

أدرك آدم أنه عصى الله ... وأخرج نفسه من الجنة .
أدرك أنه أخرج نفسه من جنة القرب والرضا ...
واندلع ندمه مريراً قاسياً فاجعاً وبلا نهاية ...
انكفاً آدم يبكى ويتنحب ..

وكانت حواء تشهد ما يجري فانهارت حين
شاهدت الرجل الوحيد في الكون يبكى
كالأطفال ..

ضمته حواء إلى صدرها ولكنه استمر في بكائه ...
واختلطت دموع آدم وحواء معا في وداع أخير للجنة ..

نظر الله الرحيم إلى عبده الخاطيء ..
فاض حنان الحق وفاضت رحمته ..
﴿وعصى آدم ربه فغوى ... ثم اجتباه ربه فتاب
عليه وهدى﴾ .

.....

لا تبئس يا آدم ... كان في علم الغيب انك ستأكل
وتعصى ... لولا عصيانك ما نزلت إلى الأرض ...
أنت تنزل نزول كرامة لا نزول إهانة ... خلقت الأرض
لك من قبل أن تخلق ، وكذلك أنبأ ربك الملائكة من
قبل أن تخلق .





(١١)

كانت أحزان آدم في حجم الأرض .
وكان قلبه في حجم قبضة اليد ، وفاضت أحزانه من
نفسه حتى كادت روحه تغرق في بحار الندم وتهلك
تماما وتيأس .

وفاضت رحمة الله تعالى عليه فعلمه كلمات تخفف
حزنه ... كلمات عجيبة .
كانت هذه أول كلمات للتوبة يتعلمها بشر .

﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا
لنكونن من الخاسرين ﴾ .

ردد آدم كلمات التوبة فجفت بحار حزنه وانطفأت
نيران ندمه ... وعاد يستشعر الفرح الإلهي مرة أخرى .

عاد يقترب من الله تعالى ... وأصدر الله تعالى
أمره بالهبوط إلى الأرض ... لم يعد آدم يحس
الاعتراب ... لينزل إلى الأرض ... مادام قريبا من
الله فسيان أن يكون في الجنة أو على الأرض ..
تتحول الأرض إلى جنة إذا كان الإنسان فيها قريبا
من الله .

.....

﴿ قال اهبطا منها جميعا ﴾ .

تأمل كيف يثنى الخالق ثم يجمع ، اهبطا منها
معا ... هذا ما يتبادر إلى الذهن ، لكن قوله اهبطا
منها جميعا ينطوي على الخلق البشري كله
وناموسه الذي سيصير إليه ..

﴿ بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم مني
هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ .

.....

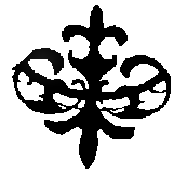
انتهى الأمر ونفذت المشيئة الإلهية ، ودعت
الجنة قبل أن أتركها مع آدم ، ودعت ترابها
المعطر وأشجارها وأنهارها وبراءة الأشياء فيها .

ودعت الدهشة والبكارة والنقاء ..
ودعت هذا كله بأن خبأت حلما عن الجنة
داخل لا وعيى قبل أن أنخلق ..

ونسجت روى آلاف الحصون حول هذا
الحلم الأول عن الجنة وهبطت مع أبى حين هبط
إلى الأرض .

.....

أخيرا لاحت الأرض .





(١٢)

حين هبط آدم إلى الأرض انقطع مجيء
الذبلذبات التي كانت تصل إلى وأنا ذرة في ظهره
حين كان في الجنة . لم أعد أسمع ... لم أعد
أرى ... لم أعد أحس ... لم أعد هناك .
انقطع الاتصال فجأة ... أدركت أنني
ميت ... هذه هي الموتة الأولى .

.....

يقول تعالى في سورة غافر : ﴿ ربنا أمتنا
اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ .

قال المفسرون إن الموتة الأولى كانت فى أصلاب الآباء قبل الخلق ، والحياة الأولى هى الحياة الدنيا ، ثم يموت الناس فى الدنيا ، وهذه هى الموتة الثانية ، ثم يحييهم ربهم يوم البعث والقيامة ، وهذه هى الحياة الثانية .

.....

لم أزل فى أحضان الموتة الأولى ... ليس الموت مخيفا كما نتصور ، إنما هو جزء من رحلة الإنسان فى الكون ، هو صورة من الصور . شأنه شأن النوم ، نحن ننام خلال حياتنا على الأرض ثم نستيقظ ، ننام ساعات ثم ننهض ، ليس الموت سوى نوم لسنوات أو قرون ... لا يعرف المرء حين يستيقظ أنه نام غير لحظة ، لا يدري كم نام ولا يعرف وهو نائم أن الوقت يمر ، وهذا هو جوهر الموت أيضا ، ليس فيه إحساس بمرور الوقت ، وليس الإحساس بمرور الوقت ممتعا دائما .

.....

نفخ الله من روحه فى الخلايا والدم فأحسست أننى
أتحرك .. تحركت حركة سريعة فضربت جدارا لينا لم
أعرف ما هو ، المكان ظلام هائل ، وأنا متكور على
نفسى تماما ، تحولت من نطفة رجل وبويضة امرأة إلى
خلية عجيبة تنقسم إلى ملايين الخلايا التى تصنع المخ ،
وملايين الخلايا التى تصنع العظام ، وملايين الخلايا
التي تصنع شبكة الأعصاب ، وبلايين الخلايا التى تصنع
بقية الجسد الإنسانى ، ومن المدهش أن كل خلية
كانت تعرف طريقها رغم أن الدنيا ظلام مطبق ، ثمة
عمل لا يتوقف فى بطن أمى ، وهكذا رأيت يد الرحمة
الإلهية وهى تعمل من وراء ستار قوانين معقدة متشابكة
لا تضل أبدا ولا تخطيء ولا تنسى .

سجدت فى رحم الأم لهذا الإعجاز الذى يقع لى
دون أن يراه أحد .





(١٣)

أوقفنى فى الموت فرأيت الأعمال كلها سيئات ،
ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء ، ورأيت الغنى قد
صار نارا ، ورأيت الفقر خصما يحتج ، ورأيت كل
شئ لا يقدر على شئ ، ورأيت الملكوت خداعا ،
وناديت يا علم فلم يجبنى ، وناديت يا معرفة فلم
تجبنى ، ورأيت كل شئ قد أسلمنى ، ورأيت كل
خليقة قد هرب منى ، وبقيت وحدى ، وجاءنى العمل
فرأيت فيه الوهم الخفى ..

فما نفعنى إلا رحمة ربى ، وقال لى أين عملك
فرأيت النار ، وقال لى أين معرفتك فرأيت النار ،

وكشف لى عن معارفه الفردانية فخدمت النار .

وقال لى : أنا وليك ... فثبت ، وقال لى : أنا
معرفتك ... فنطقت ، وقال لى : أنا طالبك ...
فخرجت ... (النفرى) .

.....

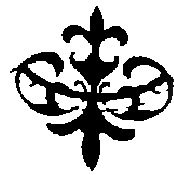
خرجت من رحم الأم إلى سطح الأرض
ولدت والفجر يوشك على الأذان والمؤذن يتهل
بقوله : يا أرحم الراحمين ارحمنا ..

.....

أخيرا وصلت إلى الدنيا ..
حمل ميلادى فرحة عارمة للأسرة ، كنت أول عطاء
من الله لهما فى الذرية ، مات قبلى شقيق وهو فى بطن
أمى ، وكان وجوده سيؤدى إلى وفاة الأم ، واختارت
العائلة بقاء الأم ، وهكذا ولدت بعد يأس ومخاوف ،
ولكننى عوضت هذه المخاوف بولادة سهلة للغاية ،
ويبدو أن رغبتى فى القدوم إلى الدنيا غلبت على ، فلم
أكد أصدق انفراج باب الرحم حتى سارعت بالتزول .

كانت جدتي لأمى هى أول من تلقانى من الأرض ،
وكانت أول من لفنى فى الثياب .
بكيت قليلا شأن كل الأطفال ، ولم أكن أبكى
لسبب .
كنت أريد أن أسمع صوتى .

لقد ظللت قرونا كاملة صامتا لا أتكلم ،
ولا أكتب ، ولا أرى ، ولا أسمع ... أخيرا دبت فى
الحياة ... كنت أبكى وكانوا يضحكون .
أخيرا رزقنا الله بولد .





(١٤)

أوقفنى فى الكون .
وقال لى : أنت معنى الكون كله .
وقال لى : أريد أن أخبرك عنى بلا أثر سوى .
وقال لى : الحقيقة وصف الحق والحق أنا .
وقال لى : هذه عبارتى وأنت تكتب فكيف وأنت
لا تكتب ؟ (النفرى) .

.....

ولدت لا أعرف الكتابة ولا القراءة ولا الكلام
ولكننى ولدت أعرف الله ... وأعرف ملايين
الأسرار ولكننى أظن فمى على الصمت .

اكتشفت بعد أن ولدت أن سر مجيئى هو الأحلام ،
كانت أمى تحلم بى قبل أن أولد . وقد بلغت ثقتها فى
أحلامها أنها صنعت ملابسى على أحدث طراز لملابس
الأطفال فى ذلك العصر ، وكان أبى يحلم بى قبل أن
أولد ، كان يريد ابنا يعمل فى القضاء ، أما أمى فكانت
تريد طبيبا شهيرا ، أما جدى فكان يريدنى لمجرد أنه
يريدنى ، وكذلك فعلت جدتى .

لم يكن أى واحد منهما يحلم لى بعمل معين ، كانا
يدركان أنهما لن يعيشا ليريا هذا الأمل البعيد ، ولذلك
اكتفيا بحلم بسيط هو أنا ، وكان كل واحد حولى يعلق
على آمالا معينة ويحلم لى أحلاما معينة .

أما أنا ... فكانت كل مشاكلى أننى أريدهم أن
يصمتوا قليلا وأريد أن أعرف اسمى ... اقترحت
عشرات الأسماء ، وتداول أصحاب الاقتراحات أيها
أقرب إلى السمع والطف على الأذن .

ثم حسمت أمى الموقف كعادتها حين تحسم
الأمور .

قالت : لقد نذرت لله إن عاش أن أسميه على اسم

سیدی أحمد البدوی ، اسمه أحمد ..

وعرفت أخیرا أنني انتسب بالاسم لسیدی أحمد
البدوی ، وحمدت الله على سلامة الاختیار ، وخیر
الأسماء ما حُمد وعُبد .

تعرفت إلى أمی بعد أن أفقت ، لم یکن بوسعی أن
أقاوم حبها وهی تفيض على من حنانها کل هذا القدر ،
ووقعت فی حبها من النظرة الأولى وتأكد هذا الحب
بعد الرضعة الأولى .

وهكذا تعرفت على أول حواء لی فی الأرض .



(١٥)



حواء هى السكن ..
وحواء هى المودة والرحمة ..
بالنسبة لى كان أول سكن هو صدر الأم ، وكانت
أول مودة ورحمة تصدر من الأم ..
يمكث النوع البشرى تسعة أشهر فى بطن أمه ، ثم
يمكث معتمدا على الرضاعة عامين أو أكثر ، وهذا كله
سكن عميق .
وقد سكنت فى أحضان أمى كل هذه الفترة ...
وهذه هى أول جنة يعيشها الإنسان على الأرض ...
وأحيانا تكون هى الجنة الوحيدة .

فى الرضاعة ىستوى الأطفال جمىعا فى الطىبة
والبراءة والدهشة والوداعة ، لا شرور هنا ولا خداع
ولا وجود لإبلىس ... نحن فى جنة البراءة ... مرة
أخرى ىراود الذهن حلم الجنة .

ىتحقق هذا الحلم فى الطفولة الأولى ... حىث
ىحس الأطفال عادة أكثر مما ىعرفون ، وحىث
ىحدثون الأشياء حدسا قبل أن ىبدءوا تمللزها ، وحىث
ىتلمسون طرىقهم إلى الثدى فىلتقمونه وعىونهم
مغمضة .

.....

تأمل أطفال الآدمىىن حىن ىرضعون ... تأمل
كىف ىحدقون فى هدوء وثبات بعىدا عن الثدى
وهم ىرضعون ، كأنما ىحىون حىاتىن فى آن
واحد ، ورغم أنهم ىمتصون الغذاء مباشرة من
جسد الأم ، فإنهم لا ىزالون روحىا ىستطىبون
ذكرىات غىر أرضىة ... ومازالت عىونهم تحدق
بعىدا فى اتجاه هذه الذكرىات .

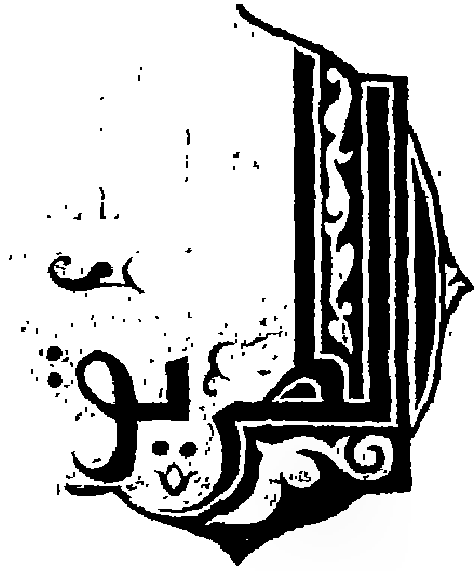
أى ذكريات لهذه الحقبة القديمة ... إن الطائر يحلق فى السماء وظله يجرى على الأرض مرفرفا كأنه طائر ، والطفل ببراءته يسعى لصيد ذلك الظل ، ينطلق وراءه وهو يعدو حتى تخور قواه .

لا يدري الطفل أنه يطارد ظلا لطائر فى الجو . ولا يعلم أين أصل هذا الظل . هذه ذكرياتى عن فترة الرضاعة .

لا أذكر منها شيئا محددا بالذات ... تماما مثلما لا أذكر من الجنة السابقة شيئا محددا بالذات ... إحساسى بهذه الفترة يشبه إحساس رجل يسمع صوتا ولا يرى شفتين .



(١٦)



كيف يخرج من قلب الإنسان شغله الأول ؟
وكيف يفترق عن فؤاده أول حب ؟
لقد كنت أنا أيضا من سكارى هذا الخمر ،
و كنت فى حضرته من العشاق .
وإننى قد استقبلت الحياة على محبته ، كما
أن عشقه كان قد غرس فى روحى .
ولقد لقيت من الزمان أياما طيبة ، كما أننى
احتسيت مياه الرحمة إبان ريعى .
ألم تكن يد فضله هى التى غرستنى ؟ أليس
هو الذى قد أخرجنى من العدم ؟

وما أكثر ما كنت قد شهدت من أُلطافه ، ولكم
تجولت فى بساتين رضاه .
إنه كان يضع فوق رأسى يد رحمته ، وكم كان
يفيض ينابيع اللطف منى .
وفى وقت طفولتى ، حينما كنت رضيعا ، من ذا
الذى كان يهز مهدى ؟ ... إنه هو .
وهل كان لى حليب أحتسيه غير حليبه ؟ ومن
الذى رعانى غير تديره ؟

وكيف يمكن أن تنفصل عن المرء تلك الخليقة التى
دخلت كيانه مع الحليب .
جلال الدين الرومى - المثنوى المعنوى

سمعت هذه الكلمات من صمت أُمى خلال فترة
الرضاعة ..

كانت فترة رائعة ... ولدت فى الفجر ، وتحديثى
أُمى أننى كنت أرضع مرة واحدة كالكلاب ... ثم أنام
طوال الليل على جنب واحد ، أى حمق كنت أمارسه
فى الطفولة الأولى ..

لا بأس ... سوف انتقم عندما أكبر وأسهر كل ليلة
حتى الفجر ... إما جالسا في الشرفة أحاول عبثا عد
نجوم السماء ، أو مقلبا في الأوراق الصفراء للكتب
القديمة التي تتحدث عن رحلات السندباد ، أو مقلبا
بعد ذلك في الكتب التي تبحث عن الحقيقة ..

لكننى أعترف بأننى وقعت أسير عشق مولانا جلال
الدين الرومى منذ فترة الرضاعة ... أكان الرومى يغافل
أمى ويهدد فراشى بهذه الكلمات ... أم كانت
الكلمات حقا غناء يشيع فى الجو ، وكل ما فعله
الرومى أنه اشترك مع الجوقة فى الغناء ؟





(١٧)

كانت أمى سيدة مدهشة ... وكانت أما عظيمة
بنفس المقدار .

كانت سيدة من أصحاب التقاليد .

وكانت لها تقاليد فى كل شىء ... فى الأثاث
والطعام والحديث والتعبير عن المشاعر والجلوس وكل
شىء ..

وقد فكرت أمى فى الاحتفال بعيد ميلادى بعد
ميلادى بأربعة أشهر ... وقد حدثوها أن الناس تحتفل
بأعياد الميلاد بعد سنة لا أربعة أشهر ، ولكنها
أصرت ... وهكذا حملتنى إلى أكبر مصور فى ذلك
العصر ، والتقطت لى صورة تذكارية ... كان عمرى

١٦ أسبوعا ، ولم أكن أستطيع أن أقف أو أجلس ،
وهكذا تقرر أن تلتقط الصورة وأنا نائم . وكان من
تقاليد هذه الصور أن تلتقط للزبائن وهم عراة كما
ولدتهم أمهاتهم ... وهكذا خلعت أمي ملابسى وأنا فى
الشهر الرابع ، وأرقدتني على صدرى بلا حول
ولا قوة ... ومدت يدها وأمسكت بى ، وبقيت مشكلة
أن أنظر إلى العدسة بغير أن أطرف . ووقف أبى عند
عدسة التصوير وراح يقوم بحركات وأصوات هدفها
لفت انتباهى ... أخيرا نظرت ... ولمع الضوء وتجمد
المنظر فى صورة تذكارية .

يحلولى كثيرا هذه الأيام أن أتأمل هذه الصورة .
إن البراءة التى يعكسها الوجه أمر يؤكد أننى كنت
أعيش فى الجنة .

تأملت يدي فى الصورة ... كانت صغيرة وناعمة
وتحاول القبض على الهواء ..

كيف تحول هذا الوجه البريء إلى تجاعيد الزمن
وأحزان الكهولة ؟ ... كيف تحول الشعر
الحريرى إلى أسلاك بيضاء ؟ ... كيف استطعت
أن أهدق فى العدسة دون أن أطرف ؟

موقف لا تطرف (النفرى) .
قال لى : انظر ولا تطرف يكن ذلك أول جهادك
فى .

موقف العهد .
أوقفنى فى العهد وقال لى : اطرح ذنبك على عصى
وألّق حسنتك على فضلى . وقال لى : اترك علمك إلى
علمى تقتبس نور الهداية ... وألق معرفتك إلى معرفتى
تثبت الهداية .
وقال لى : إذا وقفت بى تعرض لك كل شيء
ليدفعك عنى .
وقال لى : إنما تأخذ أجرك ممن أصبحت له أجيرا .
وقال لى : إن عملت لى من أجلى فذاك لى ..
وإن عملت لى من أجل غيرى فذاك لغيرى .



(١٨)



مرت ثلاث ثوان ..
صار عمري ثلاث سنوات ..
لا أذكر من طفولتي المبكرة كلها غير مشهد
واحد ..

وأذكره مثل حلم غارق في الضباب ..
شاطيء بحر طويل لعله الإسكندرية ... عربة أطفال
يجلس فيها طفل يرتدى رداء من الصوف المشغول من
رأسه إلى قدميه ... والدنيا نهاية شتاء أو بداية شتاء ..
أمي تقف وراء العربة وتدفعها أمام البحر ... هذا
كل ما أذكره من طفولتي الأولى ... ولا أعرف
لماذا لم تحتفظ ذاكرتي بغير هذا المشهد . إن

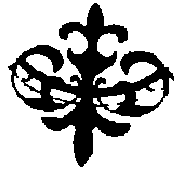
الصورة جزء من عالمى الداخلى ... وأذكر أننى
سألت أمى مرة : هل عشنا فى الإسكندرية ؟
قالت : نعم ... كان أبوك يعمل مدرسا هناك .
سألتها : هل كانت عندى عربية أطفال ... هل
كان لدى رداء من الصوف المشغول ؟ ..
قالت : نعم ..

سألت نفسى : أين ذهبت عربية الأطفال ؟ وأين
ذهب الرداء الصوفى ؟ وأين ذهبت أمى ؟
اختفى الثلاثة بالموت على ثلاث مراحل متعاقبة ..
لم يعد باقيا سوى البحر ..

فى طفولتى كان. هناك البحر والعربة والرداء
وأمى ... لم يكن إحساسى يومئذ يستطيع أن يميز بينى
وبين العربة والبحر والصوف وأمى ، كنت أحس أننى
أنا البحر والعربة والصوف وقد وقفنا معا نحدق فى
السر ، وكنت أحس أحيانا أخرى أننى شىء يختلف عن
كل ما أراه . وأحيانا كنت أحس أننى أتلقى قبلات مبللة
بعطر البحر ، حين يقع على وجهى رذاذ البحر الذى
يتناثر من الموج وهو يتكسر على منطقة صخرية ..

ومن الغريب أننى لا أذكر وجه أمى فى هذا
المشهد ... أذكر ملمس الصوف وأحس بحركة العربة
ولكننى لا أذكر وجوها بما فى ذلك وجهى نفسه ...
كانت الصورة تخلو تماما من البشر ، لم يكن فيها غير
كائنات وعناصر ، ومن بين هذه الكائنات كان البحر
أضخمها .

هل وقعت فى حب البحر منذ هذا العمر ، أم أن
لهذا الحب تاريخا سابقا يرجع إلى الأيام التى كان فيها
عرشه على الماء ؟
مضيت أجدق فى البحر فى سهوم .





(١٩)

موقف البحر ... (لمحمد بن عبد الجبار
النفرى) .

أوقفنى فى البحر فرأيت المراكب تغرق ، والألواح
تطفو ، ثم غرقت الألواح ... وقال لى : لا يسلم من
ركب .

وقال لى : خاطر بنفسه من ألقى نفسه ولم يركب .
وقال لى : هلك من ركب وما خاطر .
وقال لى : فى المخاطرة جزء من النجاة ، وجاء
الموج فرفع ما تحته وساح على الساحل .

وقال لى : ظاهر البحر ضوء لا يبلغ ، وقعره ظلمة
لا ترى ، وبينهما حيطان لا تستأمن .

وقال لى : لا تركب البحر فأحجبك بالآلة .
ولا تلق نفسك فيه فأحجبك به .
وقال لى : إذا وهبت نفسك للبحر ففرقت فيه كنت
كذابة من دوابه .

وقال لى : غششتك إن دلتك على سواى .
وقال لى : إن هلكت فى سواى كنت لما هلكت
فيه .

وقال لى : الدنيا لمن صرفته عنها وصرفتها عنه ...
والآخرة لمن أقبلت بها إليه وأقبلت به على .

مضيت أحدى فى البحر وأرقب أمواجه
المتدافعة .

إن كل موجة مقبلة تبدو وكأنها تريد أن تقول
شيئا ما ..

شيئا بالغ الأهمية والخطورة .

ولكن هذا الشيء من الجلال والجمال بحيث
يعجز البحر عن تحويله إلى كلمات ، ومن ثم
يكتفى بانقلاب موجاته وانسياعها على
الشاطئ .

وبدا لى فى انقلاب الموج شىء يشبه الغضب ...
لكنه كان غضبا لا يقول شيئا . وشدقا فمه يفوران
بالزبد ... إن الموجة تضرب الشاطئ ثم يرهقها
الغضب فتنداح عائدة .

تهدأ وتنسحب ... ثم تبدأ رحلة العودة إلى البحر
حيث تذوب فى موجه ثانية ... ويتكرر المشهد بلا
توقف ولا تغيير .

وكلما فتح الموج فمه المائى ليقول السر أدرك أن
السر أعظم من أى كلمات ويغلق فمه على السر .
وتتردد موجاته على الشاطئ ... هادئة فى أيام الهدوء
عاصفة أيام العواصف .

أىكون للبحر مزاج بوصفه مخلوقا ... ولكل
مخلوق مزاجه ..

مضيت أحدى فى البحر فسمعت قوله تعالى : ﴿ قل
لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن
تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ .



(٢٠)

يحلوا للأطفال أن يطوحوا الأشياء من الشباك . كما
يحلوا لهم أن يضعوا في أفواههم مالا يصلح للأكل ..
وقد خضعت في طفولتي لهذا القانون الفوضوى .
كنت مغرما برمي الحلى الذهبية لأمى من الشباك ،
وكنت مغرما بوضع أشد الأشياء غرابة في فمى توطئة
لابتلاعها .

وكثيرا ما حدثتني أمى أن كراهِيتى للذهب قد بدأت
منذ طفولتى .. وما أكثر ما ألقيت أسورة أمى الذهب
من البلكونة ، أو حلقها أو خاتمها ، كان يكفى أن
تخلع أمى الحلق وتنساه مثلا في غرفة نومها حتى أدخل

متلصصا وأمسك فى يدى الغنيمة ثم أسرع نحو
البلكونة أو الشباك وأطوح الغنيمة على طول ذراعى ..

وتكتشف أُمى ما حدث بعد دقائق أو ساعات ،
وتنزل الشغالة للبحث أمام البيت عن الحلق الضائع أو
الإسورة المفقودة ..

ثمة شىء كان يستفزنى فى لمعان الذهب ..
كنت أحس أن هذا المعدن اللعين هو معبود
العصر .

ولهذا كنت أحاربه بأسلوب طفولى بحت ، أم
أننى كنت استغل حمق طفولتى وأتمرن على
حمق رجولتى فيما بعد تجاه الذهب ؟
أيضا كان من هواياتى وضع الأشياء التى لا تؤكل
فى فمى ، إشارة موحية إلى أنه ليس بالخبز وحده
يحيا الإنسان ..

ذات يوم ... كانت أُمى تخطط فستانا لها وكانت
تضع جوارها مجموعة من الدبايس المشبك ...
فتناولت دبوسا منها ووضعتة فى فمى وابتلعتة .

هى عبقرية بغير شك ... كذلك حدثت نفسى أو
حدثنى الدبوس ولكننى لم أكد أفعل حتى مدت أُمى
يدها إلى الدبوس فلم تجده والتفتت إلى فضبطتنى
متلبسا بابتلاع شىء ..

صرخت أُمى صرخة طويلة أفزعتنى وأفزعت الدبوس
الذى ابتلعه ..

اندفعت أُمى نحوى وأمسكت برأسى وفتحت فمى
بالقوة ومدت يدها فيه بحثا عن الدبوس فلم تجده ..

وانخرطت فى بكاء يتسم بالهلع فزادت حيرتى ...
ثم هرعت إلى التليفون وحدثت أبى وهى تشهق بالبكاء
أن يحضر فوراً .

حضر أبى بعد دقائق ولونه أقرب إلى لون الليمون
الأخضر . دخل وراح يسألنى : بماذا تحس ؟
بصراحة لم أكن أحس بأى قلق ... كان الدبوس
داخلى مطمئنا تماما .



(٢١)

لم أفهم سر الهلع الذى انتاب الأسرة كلها حين
ابتلعت دبوسا من باب التجربة ، هل التجارب الإنسانية
حرام ؟

لم أكن أفهم سر اضطراب الجميع ، ولا فهمت سر
تجمع الأسرة كلها ، ولا فهمت سر الدموع التى كان
الجميع يذرفونها من أجلى ..
لم يكن الدبوس يؤلمنى ..

بعد ساعات حملتنى الأسرة إلى طبيب ... لم
يصدق الطبيب ما حدث سألتنى : أنت بلعت الدبوس ؟
أجبت بابتسامة بريئة ... أصر الطبيب على عمل أشعة
على الفور ، وجاءت نتيجة الأشعة بالإيجاب ..

كان هناك دبوس فى معدتى .
قال الطبيب وهو يتأمل صورة الأشعة ليس أمامنا
إلا الصلاة ... الأمر كله فى يد الله ..
أفهم الطبيب أمى أن على أن آكل كمية من
القطن ، حتى تنزل إلى المعدة وتلتف حول
الدبوس ، ثم أوصى الطبيب أمى أن تنخل بقايا
الطعام بعد الهضم بحثا عن الدبوس ..

رفضت تماما أن آكل القطن . لقد أكلت الدبوس
كالحواة لكننى رفضت أكل القطن ، ليس للقطن أى
طعم ، أما الدبوس فله طعم المعدن الذى صنع منه ...
توسلت إلى أمى وهى جاثية على ركبتها أن آكل القطن
فحاولت . ولكننى فشلت تماما ..

وانتابت الأسرة حالة ذعر لم أفهمها قط ..

كنت أسمع حوارهم وهو يتواثب من موضوع إلى
موضوع ... وكلمة الموت تتردد فيه ، وفهمت أخيرا
أننى يمكن أن أموت لأننى ابتلعت دبوسا ، ولأمر
لا أدريه لم أكن أصدق أننى سأموت ... خيل إلى -
يومئذ - أننى لن أموت بسبب دبوس ، يجب أن ابتلع

قنبلة لأموت ... خيل إلى أن الله لن يعيدنى إلى الموت
مرة ثانية بسبب تجربة تشبه تجربة آدم فى الأكل من
الشجرة ..
لقد أكل آدم ما نهى عن أكله ..

وابتلعت أنا مالا ينبغى ابتلاعه ، ورحم الله آدم كما
سيرحمنى ... أذكر الليالى الطويلة التى سهرت فيها
أمى جوار فراشى وهى تصلى ... أذكر الليالى الطويلة
التى سهر فيها أبى وهو يصلى ... لم تكن أمى تصلى
قبل هذا الحادث ... وكذلك أبى ... دفعهما الخوف
فى قلب الصلاة ، ثم نزل الدبوس ذات يوم كما
ابتلعه ..

أدخلته فى جوفى يد حماقة البشرية ، وأخرجته من
جسدى يد اللطف الإلهى .





(٢٢)

قالت جدتي : « كان ياما كان ... يا سادة
يا كرام ... ما يحلو الحديث إلا بذكر النبي عليه الصلاة
والسلام ... سأحكى لك حكاية ملك الأقاليم السبعة
فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان ، عاش ملك من
الملوك الشجعان ، هو إبراهيم بن أدهم ... كان غنيا
يملك قصرا يمتلىء بالآثاث الفاخر والسجاجيد الثمينة
والقناديل الملونة ... وكان يحب الموسيقى والغناء ...
وكان أتباعه الأمراء يعرفون حبه للموسيقى والطرب ،
فهم يحضرون له الجوارى ويتقنون من بينهن أحلامن
صوتا ويعلمونها الغناء ... لتغنى لملك البلاد السبعة » .
وكان الليل إذا جاء انعقد مجلس الملك ودارت
الموسيقى ووضعت أطباق الطعام ولعلت الضحكات .

ونقر الباب ذات يوم سيدان غريان لم يرهما أحد ..
سألا : هل صاحب هذا القصر أمير أم عبد ؟
قال حراس القصر : بل أمير .
قالا : نعم ... لقد قدرنا ذلك ... لو كان عبدا
لاستحي من ربه .

قال الرجلان كلمتهما وغادرا المكان ... وبلغ
الأمير إبراهيم بن آدم هذا الحوار ، فانقده في
عقله معناه ، وأدرك أنه يتصرف في الدنيا كملك
لا كعبد لله ... وخرج الأمير من ملكه فلم يعد
إليه ..

خرج من ماله وملكه وثروته وارتباطاته وكل
ما يشده إلى الدنيا .. خرج إلى الجبال والصحراوات
والأودية ... وانطلق في طريقه الروحي بحثا عن
الحقيقة الخالدة ... لم يعد يراه أحد ... وانطلقت
الشائعات تقول : إنه صار وليا له كراماته ..

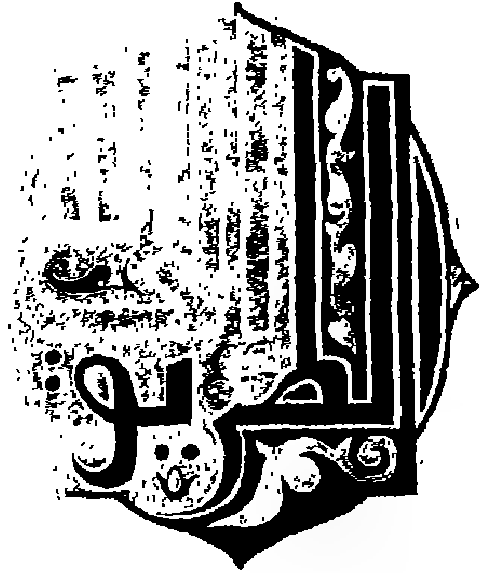
ومرت سنوات ، وخرج أمير كان من أتباع
إبراهيم بن أدهم يتمشى على شاطئ نهر ..

وفوجيء هذا الأمير بإبراهيم بن أدهم وهو يجلس على شاطئ النهر ويرقع ثيابه ، كان يمضى فى عمله صامتا وهو يضع الإبرة فى ثوبه ويخرجها منه ، ويعاود وضعها فيه ثم يخرجها منه كى يخيظ الرقعة .

وقال تابعه القديم فى نفسه : ما أغرب الزمن ... لقد كان هذا الشيخ الفقير الذى جلس يرتق ثيابه ملكا على سبعة بلاد ... وها هو اليوم يجلس كالمتسول وهو يخيظ ملابسه ..

وانكشف لإبراهيم بن أدهم تفكير تابعه القديم ؛ ولذلك ألقى إبرته فى الماء ... ثم ناداها ... فإذا آلاف الأسماك ، فى فم كل منها إبرة من ذهب ، قد رفعت رعوسها من بحر الحق قائلة : خذ أيها الشيخ إبرتك ... عندئذ التفت الشيخ إلى الأمير وقال له : مملكة القلب خير أم ملكى المادى القديم الحقير !؟





(٢٣)

لماذا خلق الله المدرسين والمدارس ؟
لماذا لا تكون الحياة مجرد حوادث من الجذات
فحسب ؟

لماذا تكون هناك امتحانات هدفها اعتصار التلميذ
ومعرفة حظه من الحفظ ؟ لماذا يضربنا المدرسون ؟
ولماذا يقحمون على عقولنا كل هذه الكمية الهائلة من
المعلومات السخيفة ؟

لا ريب أن هناك مناطق أخرى ليست فيها
مدارس ... لا ريب أن على سطح كوكبنا الأرضي
غابات تضم وحوشا ، وليست فيها مدارس ... كنت
أفضل العيش في غابة على الحياة في مدرسة ... كنت
ساذجا ..

لم أكن أعرف أن مهمة المدارس تخريج وحوش
كالغابات تماما ، لكنهم وحوش يتحركون طبقا
لخطة مدروسة وخرائط وأنابيب اختبار ... ومثل
القضاء الداهم أو الزلزال المزلزل يأتي الامتحان
فيلتهم من يلتهمه من الوحوش التي يربونها في
المدارس ..

تتحول الوحوش إلى مخلوقات مسكينة بائسة ترتعش
في ملابسها من الخوف ، ورغم أن الامتحان محدد في
يوم معين من أيام السنة . وهو عادة آخر أيام السنة
الدراسية ... رغم ذلك كان الامتحان يفاجئنا دائما ...
وكان يفاجئني بشكل خاص ..

كنت أكره أناسا فكرة أن يمتحن الإنسان الكبير
أخاه الإنسان الصغير ، وكانت هناك علوم أحبها وعلوم
أكرهها ، ومواد تستهويني ومواد أنفر منها ، كان
التاريخ يشبه مجموعة من الحوادث الجميلة ذات
المعاني التي تشبه حكايات جدتي ، أما الجغرافيا
فكانت طعاما لا يستطيع ذهني ابتلاعه ، ورغم أنني
سأصير عندما أكبر عاشقا للأماكن ، فلقد كانوا

يدرسون لنا الجغرافيا بأسلوب تقليدى لا يعلم
الحب ..

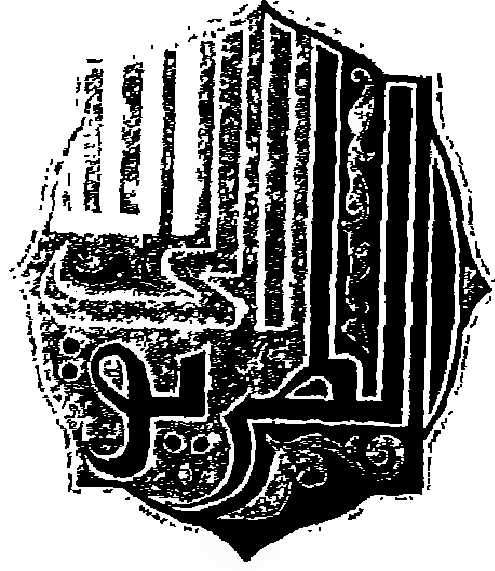
ورغم حبي لله ، فقد نجحت دروس الدين فى
مرحلة الطفولة أن تزرع فى نفوسنا لا شيء ، لا الحب
ولا الكراهية ، ولا الإيمان ولا الخوف ، كانت حصّة
الدين هى حصّة النوم العميق ... كان المدرس يأمرنا
أن نخرج كتاب الدين ونطالع فيه ..

وأحيانا ينقض السؤال على رأسك وأنت نائم
فيوقظك بغتة ..

وتنهض مفزوعا فيعاود المدرس صك سمعك
بالسؤال ... آه ... أنت نائم إذن ..

ما الفرق بينك وبين أحد السباع أو الحمير الوحشية
النائمة .. إنه نائم وأنت نائم ..





(٢٤)

قال مدرس اللغة العربية :

— اقرأ يا ولد .

قلت : قال الله تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل

إليه تبتيلا ﴾ ... صدق الله العظيم .

قال المدرس : عظيم ... ما معنى ﴿ وتبتل إليه

تبتيلا ﴾ ؟

سقط على السؤال كما سقطت التفاحة على رأس

نيوتن ... مع فارق بسيط ، أنه اكتشف من سقوطها

قانونا من قوانين الكون ، أما أنا فأكلت التفاحة وعدت

إلى النوم .

قال المدرس : ما معنى ﴿ تبتيلا ﴾ ؟

زاد السؤال صعوبة ، وخيل إلي أن الله يريد منا

أن نجبه ، ولم أعرف لماذا يريد الله منا أن
نجبه ..

رفع مدرس اللغة يده بالمسطرة وقال :
- هات يدك ..

مددت يدي أمامي ... وسقطت المسطرة بعنف
لا يخلو من حنان ... كان المدرس غاضبا لأنني لم
أعرف ..

وأنشأ يحدثني بلطف وبرود وهو يضربني على يدي
الممدودة :

- أنت لا تعرف ... لماذا ؟ هل أنت حيوان ؟
ألسنت إنسانا ؟ أليست مهمة الإنسان هي المعرفة ؟ هل
تعتقد أنك حمار جاء إلى الدنيا ليأكل ويشرب وينهق
قليلا ثم يمضي عنها ؟ هل أنت حمار ؟ الحمار
لا يعرف ... هو الذي يسكت إذا سأله أحد ...
هيه ..

هذا يكفيك كعقوبة ... التبتل هو الذوبان في
العبادة . هو العكوف عليها والاشتغال بها والانقطاع
عن السوى ..

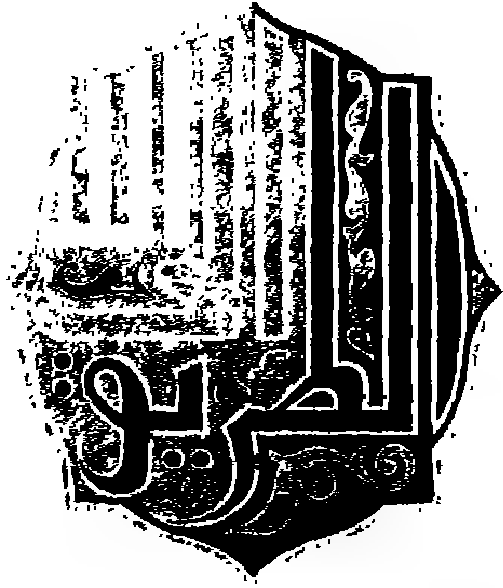
لا أعرف أين هو اليوم ... يرحمه الله حيا أو ميتا ..
لقد فهمت ما قاله ولكننى فضلت - فيما بعد - أن
أفسر ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ﴾ بوضع آيات من الشعر :

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة
وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وصرت بلا وجد أهيم من الهوى
وهام على القلب بالخفقان
فلما أرانى الوجد أنك حاضرى
شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجودا بغير تكلم
وشاهدت موجودا بغير عيان

.....

أعرف اليوم أن قلوب العارفين لها عيون ... ترى
ما لا يراه الناظرون . أعرف أن لها ألسنة تناجى برموز
السر ما يخفى عن الكرام الكاتبين . أعرف هذا كله
الآن ... لكننى لم أعرف جواب السؤال عندما سئلت .

(٢٥)



صلى وصام لأمر كان يطلبه
فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما
الامتحان الكبير على الأبواب ..

يسكن الرعب فى غرفة تمتلىء بالأشباح والعناكب
والأرواح الشريرة ، وداخل هذه الغرفة أعيش ... أتفلسف
وأرتعش وأوجد ... وتنظر عن يمينك فلا ترى سوى
الهلاك ... أما يسارك فهلاك مماثل ، ووراءك وأمامك
أهوال من الهلاك المؤكد .

ووسط هذه الظلمة المظلمة والرعب الويل لا يبقى
لك إلا أن تتوجه بكل وجودك الروحي إلى الله ..

وليس أمامك إلا أن ترفع أكف الضراعة وتسأل :

– يارب ..

تقولها ويمنعك الرعب من أهوال الامتحان أن

تكمل ..

.....

أوقفنى وقال لى : إذا رأيتنى كان فقرك فى إجابة
المسألة .

وقال لى : إذا رأيتنى فانظر إالى أكن بينك وبين
الأشياء ..

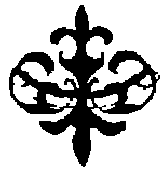
وإذا لم ترنى فنادنى لا لأظهر ، ولا لترانى ،
ولكن لأنى أحب نداء أحبائى لى . وقال لى : أفل
الليل ، وطلع وجه السحر ، وقام الفجر على
الساحة ، فاستيقظى أيتها النفس النائمة وقفى فى
مصلاك ..

وقال لى : أليت لا يجدنى طالب إلا فى الصلاة .
موقف ضراعة (النفري)

انتهى الأمر وهربت من مرعبات الدنيا إلى جزيرة
الأمن الوحيدة فى الدنيا ..

أيمكن أن تكون الجزيرة زمنا لا أرضا ..
إن الصلاة جزيرة ... ورغم ذلك فهي وقت وليست
أرضا .

تشبه الصلاة الجنة تماما ..
كانت الجنة زمانا هي زمان القرب من الله ..
والصلاة هي الأخرى زمان القرب من الله ..
في الجنة كان الله هو القريب منا بمشيئته ... وفي
الصلاة يكون الإنسان هو القريب من الله بإرادته ..
تحكم الصلاة نفس قوانين الجنة .
يمنحك الإسلام خمس زيارات للجنة كل يوم ..
إذا كنت تتلوق في الصلاة ثمار الجنة ، فأنت حقا
تصلي ... وإذا كنت لا تحس بشيء فأنت تمثل دور
المصلي مثلى .





(٢٦)

جاء شهر رمضان أخيرا مثلما تجيء أيام السعادة
الحلوة التي لا تلبث أن تجرى من بين أصابعك كما
تجرى المياه .

وشهر رمضان عند الأطفال هو الفانوس الملون
والشمعة المشتعلة ، والإنسان يخاف من الظلام ،
ويمثل الظلام عند الأطفال خوفاً أشد ، ويبدو أن فترات
الظلام التي عاشت فيها البشرية كانت طويلة فتراكمت
داخل الوعي حقبا بعد حقب ..

وفي شهر رمضان يشعل الأطفال شمعة واحدة تبدد
الظلام ، وهذه هي حقيقة شهر رمضان ..

إننا نزيد فى هذا الشهر من الصلاة ومن قراءة القرآن ... والصلاة صلة بنور السماوات والأرض . والقرآن كلمات من نور .. وهو نور يضىء العقل المدرك والعقل الباطنى .. أى أنه يضىء العقل والفؤاد معا ، وعلى هدى الضوء يرى العقل ويرى الفؤاد .

قال تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ .
أرأيت فؤادا يرى ؟ هذه هى الرؤية الصحيحة للهِلال ... وغيرها من الرؤى صور وأخيلة ..
فإذا تعلم فؤادك الرؤية تعلمت عيناك أسرار البكاء ..
إن شاء الله أن يعاوننا جعلنا نميل إلى الحزن والشجى .

فما أهنا العين التى تبكى من أجله ، وما أسعد القلب الذى يحترق فى سبيله ..

وكل بكاء عاقبته الضحك ، والبصير بالعواقب عبد مبارك . فأينما وجدت الماء الجارى وجدت

الخضرة ... وحيثما وجدت الدمع المنهمر وجدت
الرحمة ..

فكن مثل الساقية باكيا مبتل العينين حتى تنبت
الخضرة في رحاب روحك ..

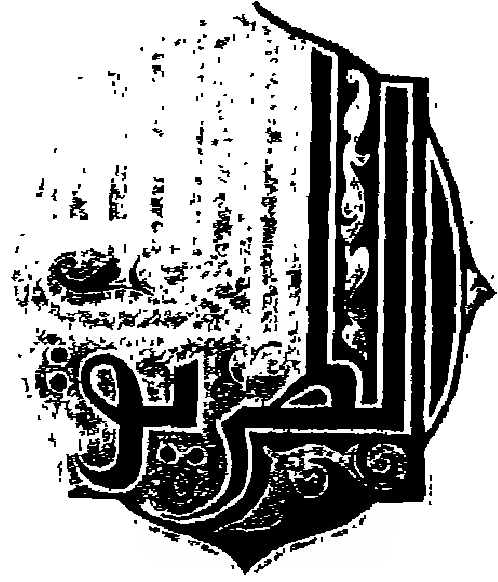
وإذا أردت الدموع ... فرفقا بمن تفيض منه
الدموع ، وإن أردت الرحمة فارحم الضعفاء .
(جلال الدين الرومي) المثنوى المعنوى

.....

انصرمت أيام شهر رمضان كعقد من اللؤلؤ انفرط
في صحراء العطش ... وقديما قال الرسول : « إن لله
في أيام دهركم نفحات ... ألا فتعرضوا لها » .

لم يكن ممكنا للطفولة أن تعي هذا كله أو
تفهمه ... ومن ثم اكتفينا بالدهشة ..





(٢٧)

قالت جدتي : وحياء النبي الذي وضعت يدي على
شباكه ..

بعد هذا القسم الكبير تقول ما تريد أن تقوله من
كلام هام ... كان الموضوع هو ليلة القدر ..

كان عمري ثمانى سنوات ... وكانت جدتي
تجلس جوار فراشي وتحكى لى قصصا مختلفة ، من
بينها حكاية سريعة عن ليلة القدر . قالت : فى شهر
رمضان ليلة تفتح فيها أبواب السماء ، ويظهر نور قوى
لا تحتمل العيون رؤيته ... ثم ... ثم تتحول الأحلام
إلى حقائق ..

رمضان ... بعد صلاة التراويح يقيم الإمام صلاة التهجد
أو صلاة القيام ..

يقيمها في الثلث الأخير من الليل ..

تستغرق الركعتان نصف ساعة ... يقرأ الإمام كثيرا
من آيات القرآن ، فإذا ركع أطل الركوع حتى لتبلغ
تسبيحاتك خمسين تسبيحة ، ثم يرفع فيطيل المكث ،
فإذا سجد أطل السجود ، وتدعو في سجودك حتى
لتحس أنك قلت كل ما لديك ومازال الله تعالى ينتظر
المزيد من ضراعتك .

هذه الصلاة تذيب الإنسان تماما ... تعود به إلى
المياه التي كانت منها النشأة الأولى ..

في هذه الصلاة تفتح أبواب السماء وتحس بمعنى
ليلة القدر .. إن ليلة القدر هي سر الجنة ... والجنة
هي القرب من الله تعالى ..

لكن هذا المعنى لا يزال بعيدا عن إدراك الطفولة أو
معرفة الأطفال ..

ونحن لم نزل في زمان الطفولة .

قلت : هل يظهر نور قوى ؟
قالت : نعم .
قلت : أريد أن أرى هذا النور ..
قالت : أنظر إلى السماء فى ليلة القدر ..

لم أعرف منها فى أى يوم تقع الليلة ، ولم أعرف
هل كانت تتحدث عن نور مَادى أو نور معنوى ،
ولكننى رجحت بطفولتى أنها تقصد النور
المادى ... ومضيت اختلس النظر إلى السماء فى
شهر رمضان ... محاولا البحث عن هذا النور
الذى سيظهر فى إحدى الليالى ... كنت أبحث
فى السماء ..

تماما مثلما يجرى الصياد الأحمق وراء ظل لطائر
يطير فى السماء ... ويحاول اصطياد الظل ..
كان هذا النور جوار يدى ... كان جوار يدى
مصحف صغير ... ولم يكن نور ليلة القدر غير
الاتصال الحقيقى بهذا المصحف ..

المسجد الحرام فى العشر الأواخر من شهر



(٢٨)

فى البحر ألف إغراء وإغراء ... سطحه الأزرق
الجميل المنبسط الذى يشيع بالوداعة الأثوية ... وهذه
المودة الرطبة التى تكون للمياه حين تلتف حول
الجسد .. وهذا القانون المدهش الذى يجعل المياه
تحمل الإنسان ... هل تشك أن المياه مسخرة للإنسان
مأمورة أن تحمله ؟ ما تفسيرك إذن لقانون الطفو ..

لاحظ أيضا أن المياه والتأمل الفكرى قرينان
قديمان ... فى الماء سر يجعل الإنسان يقفز فى
البحر ، أو يسجنه البحر على الشاطئ فيقف أسير
الصمت والتأمل ..

وهناك فرق بين أحضان البحر وأحضان أى كائن آخر . حين يحتضن الإنسان إنسانا أو كائنا آخر ، لا يحتوى جسدا جسدا من نحيبه ، وإنما تبقى من جسد من تحب أجزاء خارج دائرة الاحتواء ... هذه الأجزاء العارية ثغرات يمكن أن ينفذ منها كائن آخر .

أما أحضان البحر فهي وحدها التى تحيط بالإنسان كله ... تلتف حوله كله ، لا تترك فيه ثغرة ... تحتويه بالمعنى الدقيق للكلمة ، والإنسان والبحر قريان قديمان ... وجعلنا من الماء كل شئ حى .
هما ابن وأم ..

ينحدر النوع الإنسانى من الماء كما ينحدر الطفل من أمه ... هذه الأمومة الكونية للبحر كانت منافسا لأمى فى طفولتى ..

عشقت البحر وكنت أقضى فى أحضانه معظم أيام الصيف ومعظم أيام الشتاء ..
وقد دفعت ثمن عشقى للبحر ذات صيف ..

كان عمري خمس عشرة سنة ... حين وقفت في ذلك الصباح أمام البحر وقلت لنفسي : سوف أصبح حتى هذه النقطة هناك ... ثم استدير وأصبح بعرض الشاطئ ... أدخل من شاطئ الإبراهيمية وأخرج من شاطئ كليوبترا ... ستستغرق الرحلة عدة ساعات ... كنا خمسة أصدقاء ..

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي نقوم فيها بهذه السباحة المضيئة ، كان العقل ثملاً بخمر الشباب ... وحصان الرغبة يدفع العربدة مجنوناً منتشياً بزهو القوة .

كانت الرمال الصفراء تبدو مثل فخ نسائي جميل لم ينتبه إليه أحد ... جريتنا فوق الرمال وألقينا أنفسنا في أحضان الموج ... بدأنا نسيح ... تقدمنا وسط مياه مزبدة لم تلبث أن تحولت إلى تنفس عميق حين خلفنا الشاطئ وراء ظهورنا .

وابتعد الشاطئ ونحن نسيح ... ابتعد أكثر مما قدرنا ..



(٢٩)

ما الذى كنا نحاول إثباته ؟
هل كنا نريد هزيمة البحر أو هزيمة الخوف داخلنا
من البحر ... أم كانت الرحلة مجرد سباحة طويلة
تستغرق ساعات ؟ كنا نشق صدر الموج نحو أعماق
البحر ..

.....

ثم بدا لى فتوقفت والتفت خلفى ... كان الشاطئ
يبدو مثل خط بعيد باهت الصفرة ترصعه الشمسيات
الملونة ... قلت لأصدقائى : هذا يكفى ، فلنسبح الآن
بعرض البحر ... مرت ساعة ونحن نسبح ... ثم
توقفت فجأة وسط الموج وأحسست أننى سأغرق ..

داهمنى دون سبب واضح إحساس عميق بأننى
سأغرق ، توقفت فى المياه وأحسست أننى
أغوص ... قاومت الغوص وحركت قدمى فطفوت ،
وأحسست أن قدما من قدمى لا تتحرك .. أصابنى
تقلص عضلى ..

لاحظ الأصدقاء أننى تخلفت عنهم فتوقفوا عن
السباحة .

.....

□ ماذا حدث ؟ ... سألتى أحدهم وهو يستدير
نحوى فى المياه ..

قلت دون انزعاج : لانى أغرق ... ضحكوا طويلا
ولكنهم فوجئوا أننى أغوص فى المياه ... غصت
فى المياه حتى اختفيت ... شربت مياه البحر
فأسكرنى الشراب ، احتوانى حضنه كاملا فلم
يعد باقيا منى شىء لغيره ... حركنى الخوف
فعدت أطفو ... لقد أحببت البحر حبا لم أمنحه
لمخلوق آخر ... أكون جزائى على حبه هو

الغرق ؟ ... ألقى السؤل على البحر فابتلعه
الموج .

.....

وارتعشت عظامي من الخوف ..

اقرب مني الأصدقاء وحدثني أحدهم أن استند قليلا
على كتفيه لأستريح ... تبادل الأصدقاء محاولة إبقائي
طافيا على المياه ... مرت دقائق وتعبوا هم الآخرون
فابتعدوا عني ... وبقيت وحدي وسط المياه ..

حين أيقنت أن طيش الشباب قد خذلني ، وأن القوة
تغادرني ، وأن الأصدقاء يتخلون عني ... وقفت وجها
لوجه أمام البحر ، وهكذا خطوت رغم إرادتي داخل
دائرة الاضطرار ... وتذكرت قوله تعالى : ﴿ أمن
يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ ..

يارب ..

لم أكن أعرف ماذا أقول بعدها ..
كنت مياهاً تتوسل إلى خالق المياه أن ينقذها من
المياه .



(٣٠)

لمع فى ذهنى وأنا أقاوم الغرق أننى استحق
الغرق ... تحولت كل أمواج البحر إلى ذنوب صغيرة
تربت فى أحضان اللامبالاة والاستنكار فكبرت ، ثم
صارت موجة فموجتين فثلاث موجات ، ثم صارت
بحرا لا نهاية له ..

ولمع فى ذهنى وأنا أقاوم الغرق أن البحر مثلى
تماما ... عبد مأمور فهل صلر إليه الأمر بابتلاعى ثم
بدا لى أن الغرق فى البحر قانون من قوانين الحب
النافذة ... على من يحب أن يغرق فيمن يحبه إثباتا
لحبه ... أليس ذلك قانون من قوانين النساء فى عشقهن
أيضا ... أى امرأة تحب تريد ممن يحبها أن يغرق

فيها ... أأكون قد أسلمت نفسي للهلاك دون أن
أدرى ... لماذا أحببت البحر كل هذا الحب ... لماذا
حلمت أن أغرق فيه ... ولماذا أصبح الآن على بشاعة
الحلم ؟

.....
يقول ابن عطاء الله السكندري : « ما أحببت شيئا
إلا كنت له عبدا ، وهو لا يحب أن تكون لغيره
عبدا .. » لن أفهم هذه العبارة الآن ... سأفهمها
بعد تجربة بشرية تشبه تجربة الغرق في البحر ...
ولن أفهمها إلا بعد عامين كاملين من العذاب
المتصل المخيف ... استغرق إحساسي بالغرق
في البحر ثواني قليلة ثم خرج من قلبي فعدت
أسبح ..

زايلىنى إحساسى بالبحر ... تأملت البحر بنظرة
باردة محايدة تخلو من الحب ... أنت أكبر منى حقا
ولكنك مثلى عبد تصدر إليه الأوامر من خالقه ... أيها
البحر العظيم لا تغضب إذا تخطيتك وتجاوزتك
واتجهت صعدا إلى الله بالسؤال أن يلجمك وأن يوقفك
عند حدك ..

لم أعد أحبك أيها البحر .. وبالتالي فلا سلطان لك
عليّ ... أنت مخلوق مثلى ، فأى حرق أن أقع فى
عشق مخلوق مثلى ... اللهم اصفح عني ..

اللهم أغفر لى هذا الهوى البشرى الذى سيبدأ بالبحر
ويتهى بعيون نساء تذكرنا بصفاء البحر وهو صفاء
مخادع .

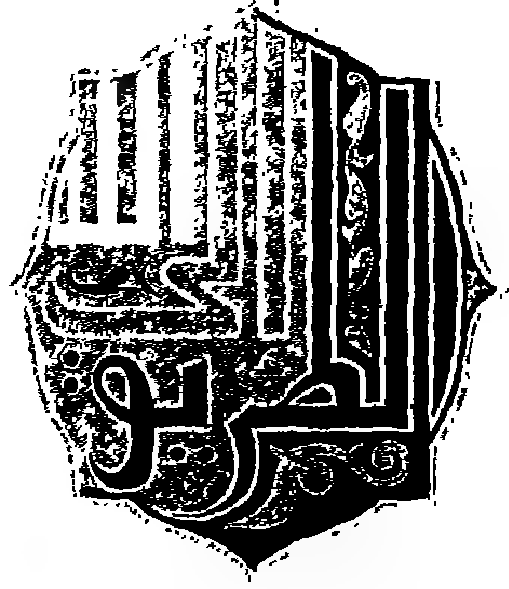
.....

موقف الصفح الجميل .

أوقفنى فى الصفح الجميل وقال لى : لا ترجع إلى
ذكر الذنب فتدنب بذكر الرجوع ... وقال لى : أطعنى
لأنى أنا الله لا إله إلا أنا أجعلك تقول للشئ كن
فيكون ..

.....

أمرت البحر أن يدعنى وشأنى وعادت السباحة
هادئا إلى الشاطئ ..



(٣١)

تركت تجربة الغرق فى نفسى أثرا عميقا رغم أننى
لم أحدث عنها أحدا ... أدهشنى كل هذا الخوف من
الموت ... وبرز الموت كقضية فلسفية تفرض نفسها
على وجودى منذ وقت مبكر ... نسيت أننى كنت ميتا
قبل أن أولد ، ونسيت أن الموت تجربة تمر بالإنسان
مرتين ، كما أن الحياة تجربة تمر به مرتين ... ما سر
هذا الخوف إذن ؟ كيف نخاف مما عشناه قبل ذلك ،
حتى لو كان ما عشناه هو الموت ؟ حيرتنى هذه الفكرة
طويلا ... ثم تعرفت على ملك الموت ذات ليلة وأنا
أقرأ قصص الأنبياء ..

.....

تقول القصة التي يذكرها ابن كثير : إن الله عز وجل بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها ليصنع منه آدم ، ونزل جبريل إلى الأرض ، فقالت له الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تأخذ ، فرجع جبريل ولم يأخذ ، وقال : رب إنها عاذت بك فأعذتها ... بعث الله تعالى ميكائيل فعاذت الأرض بالله فأعاذها ، ورجع يقول كما قال جبريل ... فبعث الله تعالى ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ... فأخذ ملك الأرض من وجه الأرض وأخذ من أكثر من مكان ، أخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء وصفراء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ..

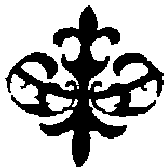
.....

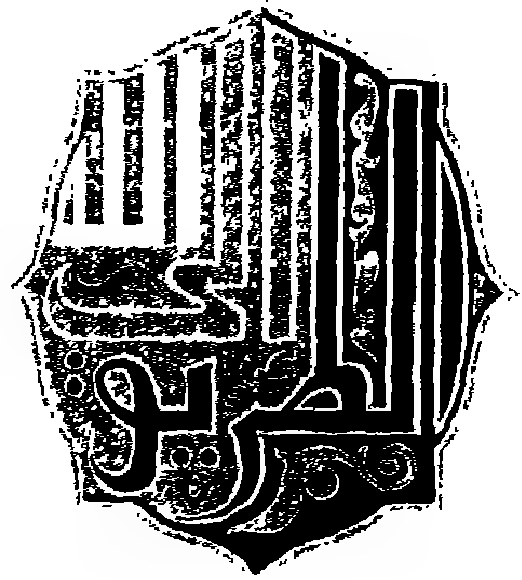
هذه هي القصة التي قرأتها في شبابي المبكر ... لم أفكر طويلا في القصة ، ولا دقت النظر في بنيانها لأعرف هل هي صحيحة أو مؤلفة ... كل ما التقطته منها أن ملك الموت حمل تراب جدنا الأعلى من الأرض لكي يسويه الخالق بيديه وينفخ الحياة في آدم . نحن أصدقاء إذن ... ليس هناك

مبرر للخوف من الموت وملك الموت صديق
قديم وصاحب فضل على أبناء آدم ..

أليس هو الذى قد جمع ترابهم من الأرض من قبل
أن يخلقوا ؟ أليس هو الذى يستل من الجسد شرارة
الحياة فيعودون ترابا كما كانوا ؟ تصورت ملك الموت
منذ طفولتى مخلوقا نبيلاً مهيباً خفياً لا يتسم أبداً ،
ورغم ذلك فإن جلاله لا يخلو من عنوبة آسرة ...
عنوبة تتمثل فى تنفيذه للأجال التى كتبها الله على
عباده ... هو عبد مأمور رغم أنه ملك كريم ، ويكمن
شرفه فى عبوديته قبل أن يكمن فى ملائكيته .

كان شعورى تجاه ملك الموت يتراوح بين البهت
والجلال والخوف والرهبة والاستسلام ... وأيضاً
الحب ... نعم ... الحب ... وإلا فقل لى بربك كيف
يكره المؤمن ملكاً من ملائكة الله ... ملكاً تجر عباءته
إذا سار ملايين الدموع وتدعو لرقعة القلب .





(٣٢)

الحب هو الطريق ... هو المركبة والحصان
والحيية والطريق والرفقة ... وفي كل مخلوق قدر من
الجمال ... بل إن في كل مخلوق كنزا من الجمال إن
دقت النظر ، حتى الكلب الأجرب جميل ، تأمل
وداعة عينيه وبياض أسنانه في هذا المرض الذى
أصابه .. ليس هناك مخلوق قبيح ... لم يخلق الله تعالى
سوى الجمال والعذوبة ... كيف نفسر كل هذا الركام
من القبح البشرى الذى تمن تحته قشرة الأرض ؟ ليس
هناك غير تفسير واحد ..

نحن مسئولون عن القبح البشرى ... نحن الذين
نصنعه ... حين نفتح فى قلوبنا ثغرة ولو صغيرة لإبليس

يولد القبح البشرى على الفور ، ويولد معه العذاب
الإنسانى وتولد التعاسة ... والحب أسهل من
الكراهية ..

.....

تحتاج الكراهية إلى تدبير وتخطيط وجهد ، وتحتاج
إلى السير فى اتجاه ضد سير الكون ... وتحتاج إلى
النار لإذكائها . أما الحب فلا يكلفك أكثر من فتح
أعضائك للكون السابح فى الخلاء الكونى العظيم ..

.....

المشكلة كلها أننا فى طفولتنا العقلية نقع أسرى
الصور الجميلة ، ثم نتعلم أن الجمال الشكلى
ليس هو الجمال النهائى وليس دليلا على وجود
الجمال الحقيقى أصلا ..

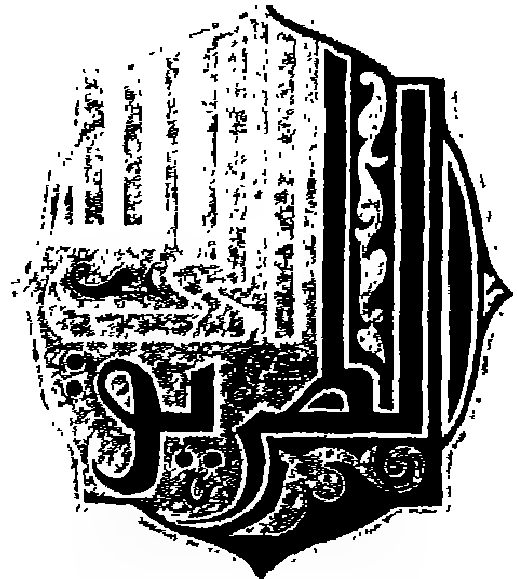
.....

كنت غرا فلم أفهم ... لم أعلم ... لم أعرف ...

كانت تقف فى الشرفة المقابلة لشرفتنا ... أحيانا كان
الهواء يطير شعرها فأحس أننى استنشقت من البعد رائحة
عطرها ... المشكلة كلها كيف يتم الإتصال بها ...
لا بد من طريقة للاتصال ..

ليس هناك أسهل من الحرف ... سوف أستغل
فرصة غياب أبى وأجلس فى مكتبه وأكتب لها رسالة
بالقلم الحبر الأحمر ... رسالة أبدؤها بقولى ...
حييتى ... أكتب إليك بدمى ... تعرف هى اننى
أكذب ، وأعرف أنا أننى أكذب ، ويعرف الحبر
الأحمر أننى استغله فى الكذب ، لكن ماذا نفعل إذا
كان أعذب الشعر أكذبه ، وأعذب الحب أكذبه هو
الآخر ... ماذا كان اسمها ... أليست مشكلة أننى
لا أعرف اسمها ؟ لقد وقعت فى حبها قبل أن أعرف
اسمها .





(٣٣)

الحب البشرى فخر يتجمل للإنسان ، والحروف هي
الأخرى فخر يظن الإنسان فيه أنه قد علم . أى أن
الحرف حجاب ..

.....

أوقفنى فى المحضر وقال لى : الحرف حجاب ...
والحجاب حرف .
وقال لى : إن لم تأكل من يدى وتشرى من يدى
لم تستو على طاعتى .
وقال لى : إن لم تطعننى لأجلى لم تستو على
عبادتى .

وقال لى : اطرح ذنبك تطرح جهلك .
وقال لى : إن ذكرت ذنبك لم تذكر ربك .
وقال لى : الحرف دليل العلم والعلم معدن
الحرف .

وقال لى : أصحاب الحروف محجوبون عن
الكشوف قائمون بمعانيهم بين الصفوف .
وقال لى : الحرف إبليس . وقال لى : الخارجون
عن الحرف هم أهل الحضرة ... وقال لى : الخارجون
عن أنفسهم هم الخارجون عن الحرف ..
موقف المحضر والحرف (النفرى)

.....

لا قيمة لعلم عقلى صاحبه غير موصول القلب
بالله ... نعم قد يكون العلم حجابا عن
الحقيقة ... زهو العلم قد يكون حجابا ...
لنطرح إذن كل شئ ولنحاول الوقوف على أول
باب من أبواب الحضرة .

قال لى : أول باب من أبواب الحضرة موقف
المسألة ... أوقفك فأسألك فأعلمك فتجيب .

قال لى : ما النار ؟

قلت : نور من أنوار السطوة .

قال : ما السطوة ؟

قلت : وصف من أوصاف العزة .

قال : ما العزة ؟ قلت : وصف من أوصاف

الجبروت .

قال : ما الجبروت ؟

قلت : وصف من أوصاف الكبرياء .

قال : ما الكبرياء ؟ قلت : وصف من أوصاف

السلطان .

قال : ما السلطان ؟ قلت : وصف من أوصاف

العظمة .

قال : ما العظمة ؟

قلت : وصف من أوصاف الذات .

قال : ما الذات ؟

قلت : أنت الله لا إله إلا أنت ..

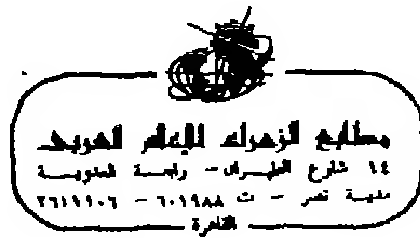
قال : قلت الحق .

الكتاب القادم :

للأستاذ أحمد بن حنبل



رقم الايداع	٨٨ / ٤٢٤١
الترقيم الدولي	٩٧٧ - ١٤٧٠ - ٩٠ - ٩

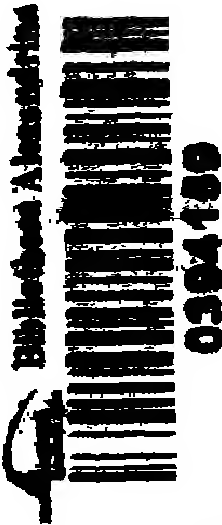




آثرت أن أكتب لكم قصة إنسان في طريقه إلى الله ، وقد بدأت
القصة من الأيام الغامضة التي سبقت خلق البشرية ... ثم تعرضت لموقف
أخذ العهد ، وموقف سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس . ثم تبعت الأيام
الأولى في الجنة ..

ثم انطفأ كل شيء وآدم يهبط إلى الأرض ، انزوى بطل قصتنا في
خلايا آدم ، وظل منا حتى ولد ذات صباح شتاء
تبعت بطل القصة وهو جنين في رحم أمه ،
بدأ يستقبل الوعي ويكبر ..

إنخرت مواقف من حياة هذا الرجل ، وهو
ترلع عنه غطاء الخيمة التراثية وتحاول إعادته إلى
المجيد .



النهضة للإعلام العربي

To: www.al-mostafa.com